

صاحب «الخيط الرفيع» في مَرَايَا النقد

الصحافة أساءت كثيرًا إلى أدب إحسان



محمد عبدالرحيم الخطيب
القاهرة

في استفتاء شعبي أجرته الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام 1952 عن أحبِّ الكُتّاب إلى الجمهور، حصل الأستاذ إحسان عبدالقدوس على الكاتب الأول. وعلى الرغم من الجماهيرية الكبيرة التي حققتها أعمال إحسان وقت صدورها، ولا سيما بين فئة الناشئة والمراهقين؛ إلا أنها على الجانب النقدي لم تنلْ اهتمامًا موزايًا لهذه الجماهيرية، إذ جاء أغلب هذا النقد في شكل مقالات صحفية أخذت طابعي القسوة أو المجاملة، أما النقد الأكاديمي فقد ندر حين كان على قيد الحياة، وإن نال بعض الاهتمام من قبل الباحثين بعد رحيله.







ويبدو أن هذا التجاهل النقدي مردّه إلى تهمتين؛ الأولى أن الجنس هو محور أعماله، أما الثانية فالحكم على أعماله بالضعف على المستوى التعبيري، وكونها أقرب إلى الأسلوب الصحفي السريع لا الأدبي الرفيع.

ولعل هذا التجاهل هو ما دفع الكاتب إلى الكفر بالدراسات النقدية، والاعتراف بعدم قراءتها، كما دفع أحدَ الكتاب إلى القول: «ومسؤولية النقاد التي تخففوا منها وأعرضوا عنها برفعهم شعار «أدب إحسان جنسي مكشوف»، واستراحوا؛ لا يعفيهم أبدًا. فهناك قضايا عديدة يطرحها إحسان في أدبه. ومن بدهيات المهمة النقدية كشفها ومناقشتها. وقد كان من الممكن لو نهض النقاد بمهمتهم مبكرًا إنقاذ إحسان مما يتهمونه به اليوم، بوضع يده على النقاط الإيجابية في أدبه، مما يدفعه إلى حشدها وتخصيبها لا إلى دفعه إلى الكفر بالدراسات الأدبية والنقدية التي اعترف مؤخرًا بأنه لا يقرؤها أبدًا» (الهلال، أكتوبر: 1984).

إحسان.. في النقد الصحفي:

ما هي الركائز الأساسية التي شكّلت السلوك الإبداعي عند إحسان عبدالقدوس؟.. هذا هو السؤال المحوري الذي دارت حوله مقالة الدكتور مصري حنورة المعنونة: «إحسان عبدالقدوس مبدعًا»، حيث رأى أن هناك بُعدين أساسيين قادا خُطى إحسان، وشكّلا سلوكه الإبداعي. أما الأول فهو التنشئة الاجتماعية والسياسية، فإذا كان قد تربى في بيت جده المحافظ المتدين؛ فإنه نشأ في بيت عصري فتح عينيه فيه على أمه الفنانة والصحفية وعلى والده المسرحي، وقابل وسمع وشاهد كثيرًا من





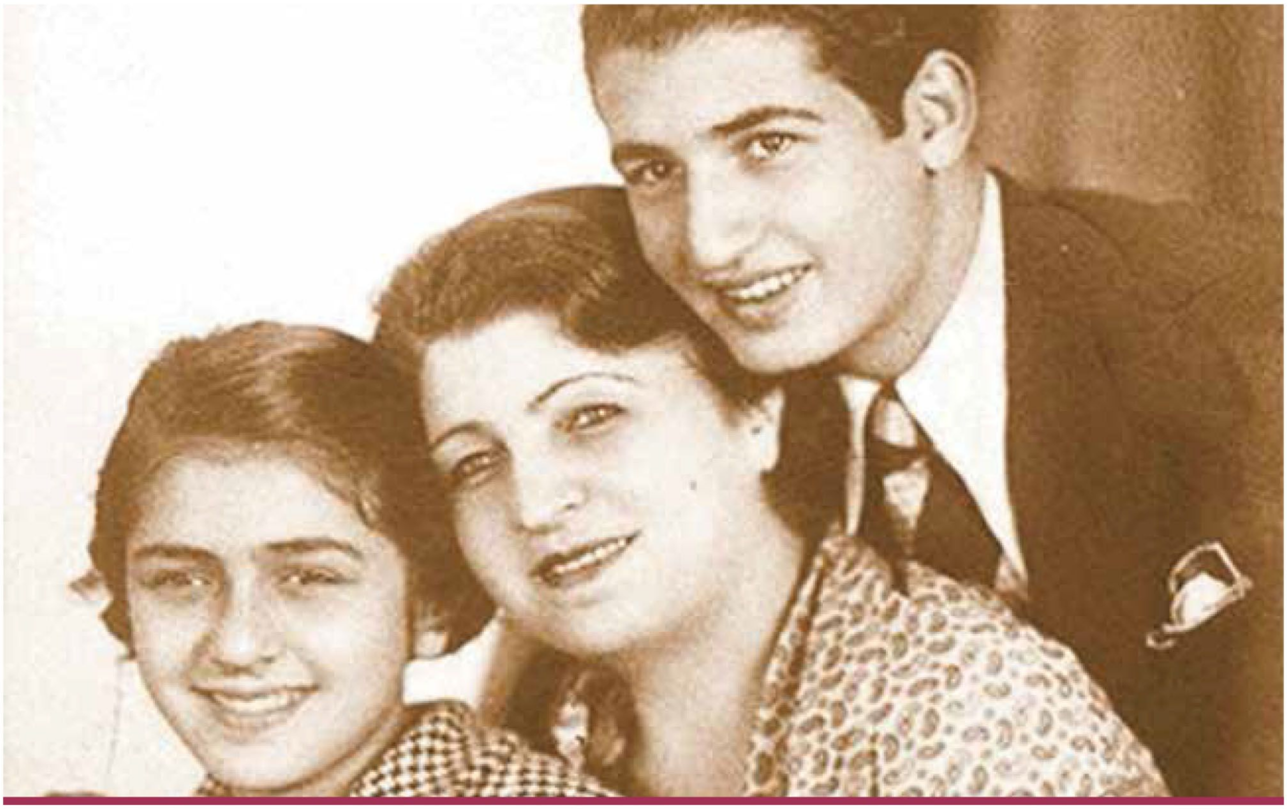
أعلام ذلك العصر ممن ترددوا على بيتهم أو رآهم في صحيفة «روز اليوسف». أما البعد الثاني فهو العنصر النفسي الخاص به، حيث البحث عن ملامح لشخصيته في بدء حياته، ثم الوصول إلى ذلك بإصرار وعناد كبيرين، فضلًا عن التحدي الملازم لطبعه. وقد تفاعل هذان البُعدان في شخصية إحسان فقادا خطاه إلى أن أصبح شخصًا منطلقًا صاحب موقف وصاحب رأي وصاحب كلمة تتحدى وتعارض، ويكون لها تفردها.

وقد ألمح الدكتور حنورة إلى أن الصحافة على الرغم من أنها قدمت فرصة كبيرة لإحسان، حيث سهولة النشر والانتشار؛ إلا أنها -في المقابل- أساءت إلى أدبه كثيرًا حين تجنّبه الباحثون والنقاد، ولم يأخذوا أدبه مأخذ الجد. كما أساءت إليه كأديب حين وجد نفسه في كثير من الأحيان مضطرًا لأن يكتب سريعًا «من أجل سد الفاه الفاغر الذي ينتظر الوجبة المكتوبة التي كان عليه أن يُقدمها بشكل دوري». كما أساءت الصحافة إلى أدبه حين طغى الأسلوب السردي المباشر على حساب التكثيف الذي يحتاج إليه الأدب بسبب قربه من ماكينة الصحافة التي لا تتيح الفرصة المناسبة من أجل التهويم والتحليق في عوالم الحلم والرمز والرؤى الثاقبة غير الواقعية.

كما لفت الدكتور حنورة إلى القيمة المحورية في إبداع إحسان، وهي قيمة «الحرية»، والتمرد على ما هو قائم من أجل تحقيق ما هو مأمول.

لهذه الأسباب كفر إحسان عبدالقدوس بالنقد

أما الدكتور محمد مصطفى هدارة فقد حَمَلَ على إحسان حملةً شديدة في مقاله المعنون: «إحسان عبدالقدوس وأزمة القصة»، وكَالَ له الكثير من النقد والتقريع. فلدى حديثه عن قصة «انتحار



إحسان الشاب والأم وآمال طليمات

صاحب الشقة» ابتدأ الدكتور «هدارة» بإيراد ما رآه مُسلّمةً في أدب إحسان، وهو تأثره المطلق بالمنطق الفرويدي، «بحيث يجعل الجنس المحور الرئيسي الذي تدور حوله كل قصصه، والذي تشقى أو تسعد به شخصياته». وأشار إلى أن الكاتب في هذه القصة يتناول دائرة من دوائر الطبقة الوسطى على عكس المعروف عن إحسان من تناوله الطبقة الأرستقراطية، وأن هذا التناول فشل في التصوير الحقيقي للقيم التي تُعبر عنها هذه الطبقة؛ حيث ألصق الكاتب بالشخصية الرئيسية في القصة «فريدة» وبالخادمة الفلاحة «نبوية» اللتين تنتميان إلى الطبقة المتوسطة صفات لا تُعبّر عن حقيقة الواقع الذي تعيشه مثيلاتهما في هذه الطبقة، منهيًا كلامه حول هذه النقطة بأن ذلك لم يكن إلا بسبب ما لدى الكاتب من فقر شديد في الإحاطة بمنهج التحليل النفسي.

وقد نحا الدكتور مازن عبدالمجيد في مقاله المعنون: «في البنية الخاصة لأدب إحسان عبدالقدوس» نحوًا مختلفًا في قراءته هذا الأدب، حيث أشار إلى أن إحسان قدم مادة ثرية للواقعية الروائية.

وفي سياق تعداده المعالم البارزة للبنية السردية عند إحسان، ذكر أن على رأسها الاهتمام بالمرأة وتحليل شخصيتها وسلوكها ودقائق عالمها. كما انحصر العالم الروائي لديه في الطبقة الأرستقراطية والأماكن التي كانت تتردد عليها. فضلًا عما تتميز به أعماله من رومانسية مفرطة، وهي الرومانسية التي رافقت وهج الاستقلال والحياة المنفتحة على القيم الجديدة. ومن معالم هذا الأدب كذلك الاعتماد على اللغة الصحفية اللينة، واستخدام العامية القاهرية في الحوار.

وأشار الدكتور مازن في تعقيبه على هذه النقاط إلى أن كتابة رجل عن المرأة بمثل هذا التفصيل يُعتبر قيمة فنية، فضلًا عن أن الاقتصار على الطبقة الأرستقراطية أدى إلى التصوير



الدقيق لهذه الفئة، وجعلها قريبة من بقية فئات المجتمع التي لم تكن تعرف شيئًا عن عوالم هذه الطبقة البعيدة عنها.

وقد خلُص الدكتور مازن إلى أن السهولة التي اتسم بها أدب إحسان (الأسلوب الصحفي واستخدام العامية) كانت مقصودة للوصول إلى أكبر شرائح ممكنة وللاتساق مع قرائه الواسعين. كما أشار إلى معالجاته الوطنية والسياسية، ولعل روايته «في بيتنا رجل» التي فضحت البوليس السياسي التابع للقصر نموذج مهم لهذا الجانب الوطني.

«أزمة الجنس في القصة العربية»:

عقد الدكتور غالي شكري ضمن كتابه «أزمة الجنس في القصة العربية» مبحثًا عنوانه «الرجل والمـرأة وإحسان ثالثهما»، تناول فيه السمات الأساسية لأدب إحسان، كما عرض لبعض المثالب التي اشتمل عليها هذا الأدب.

وقبل استعراض أهمِّ ما جاء في هذه الدراسة، نرى من الضروري الوقوف أمام مقال مهمٍّ للدكتور شكري عنوانه: «قصتي مع إحسان عبدالقدوس» ألمح فيه إلى موقف إحسان من دراسته المُشار إليها آنفًا. حيث أشار في هذا المقال إلى أنه أهدى في يناير من عام 1963 نسخًا من كتابه بعد طباعته بدار الآداب البيروتية للكُتّاب الذين سطّر عن أعمالهم دراسات ضمن هذا الكتاب، ومن بينهم إحسان عبدالقدوس الذي استقبل الكتاب بغضب تبدّى فيما كتبه في «خواطره» من كلام حادٍّ ضد الكِتَاب وكاتبه خاصة، والنقد والنقاد عمومًا.

وهنا يتطرق الدكتور غالي شكري إلى قصة مهمة ننقلها كما ذكرها، يقول: «ولكني كنت تقدمت بكتابي إلى جائزة الدولة التشجيعية التي ينظمها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وهذا هو السر الذي دفعني إلى أن أطلب من الناشر أن يُسرع بإصدار الكتاب قبل نهاية ديسمبر 1962 حتى أتمكن من تقديمه للمسابقة. وكان الناقد الراحل أنور المعداوي هو الذي أصر أن أتقدم للجائزة، وقد كتب أيامها مقالًا مطولًا في مجلة «أدب» اللبنانية التي يرأس تحريرها يوسف الخال، يُشيد بالكتاب. وقد ضمّ هذا المقال إلى كتابه «كلمات في الأدب» قبل وفاته بوقت قصير. ولكني فوجئت بلويس عوض يقول لي: إن طه حسين (وهو رئيس لجنة التحكيم) قد سأله عما إذا كنت لبنانيًّا، أو من أصل لبناني. وأجابه لويس عوض بأنني مصري وعائلتي من الصعيد، ولكني أكتب كثيرًا في لبنان. وحدد لي طه حسين موعدًا لمقابلته. كان بين أعضاء اللجنة محمد مندور وسهير القلماوي. وقد كتبا تقريرين إيجابيين عن الكتاب. قال لي طه حسين: حسبتك لبنانيًّا فقد قيل لي ذلك، وعلى أية حال فمنافسك على الجائزة هو بمثابة الأستاذ لك، وأيضًا هو تلميذي صقر خفاجة، وكتابك جيد، لذلك انتظر إلى العام المقبل، فلن نسجل كتابك بين الأعمال التي تقدمت هذا العام. ولم يكن لديّ ما أقوله في حضرة العميد الذي توثّقت علاقتي به بعدئذٍ، ولم أتقدم بالكتاب ولا بغيره مرة أخرى إلى أية مسابقة أو جائزة. ولكن المفاجأة التي كانت تنتظرني بعد سنوات عديدة هي أن كاتبًا صديقًا لإحسان عبدالقدوس هو الذي قال لطه حسين إنني لبناني حتى يحرمني من حق التقدم إلى الجائزة. كان يخشى من أنني لو فزت بها لكان ذلك يعني موافقة ضمنية من أكبر نقاد مصر على رأيي في أدب إحسان عبدالقدوس». انتهى.



غالي شكري

وهذه القصة توضح مدى الغضب الذي وصل إليه إحسان عبدالقدوس بسبب الدراسة التي كتبها عن أدبه غالي شكري في كتابه المشار إليه آنفًا.

والحقُّ أنّ ما توصل إليه شكري من نتائج نقدية في دراسته المعنونة «الرجل والمرأة وإحسان ثالثهما» لا تعني إلّا الحكم على أدب إحسان بالضعف على المستويين التعبيريّ والفكريّ.

«الحرية» قيمة محورية في إبداعه

فقد ذكر شكري في بداية دراسته أن السمة الأساسية في أدب إحسان عبدالقدوس هي المـزج بين الأسلوب الصحفي والمعالجة الأدبية للتجربة التي يتناولها بالتعبير، والسرعة الفلاشية في

التكنيك، وتسجيل الأحداث تسجيلًا تقريريًّا، فضلًا عن الأسلوب الخبري. كما وصف أغلب حديثه عن «الجنس» في رواياته بأنه حديث سطحي، لم يتناوله في أبعاده المتعددة التي تُعطي للعمل عمقًا وأفقًا أوسع، يقول: «إننا نلمس أنه لم يتناول الجنس مطلقًا كقضية خطيرة تستحق أن تُناقش، وإنما كمجموعة من المشاهد العرضية التي يسلبها الأسلوب الصحفي مقومات وجودها كعنصر جزئي في تجربة شاملة. ذلك أننا نفتقد التجربة الشاملة منذ البداية في أدب هذا الكاتب، ومن ثمّ نفتقد الرؤية الشاملة لمعنى الجنس في هذا الأدب» (أزمة الجنس في القصة العربية: 199).

وقد خلُص الدكتور غالي شكري إلى أن أزمة إحسان ليست أزمة فنية تعبيرية فحسب؛ بل هي أزمة فكرية أيضًا، يقول: «الوجه البارز من أزمة إحسان في مجال الأدب، هو الفراغ الفكري الذي تقسم به أعماله القصصية. إن الموضوع الأساسي في هذه الأعمال هو أزمة الفتاة المصرية، وهو موضوع حيوي غزير الخصوبة. وأسجل مرة أخرى أنه سيظل لأدب إحسان عبدالقدوس فضل الريادة في اقتحام هذه القضية الشائكة، غير أنه -للأسف الشديد- لم يتزود في معالجتها بوجهة نظر فكرية عميقة، وهذا هو السر المباشر وراء المعالجة الصحفية لأغلب أعماله الأدبية. إن الأسلوب الصحفي يلتقي تمامًا مع الفراغ الفكري والسطحية، فيكسب العمل بريقًا لامعًا خاليًا من أي مضمون، بل إذا كان ثمة مضمون فإنه يهبط إلى مستوى بشع من الضحالة والاستخفاف بعقلية القارئ» (أزمة الجنس في القصة العربية: 205).

إحسان.. في الكتب والدرس الأكاديمي:

بقي أن نشير إلى أن الكتب التي نُشرت عن أدب إحسان عبدالقدوس تظل نـادرة، فكتاب «إحسان عبدالقدوس يتذكر» للدكتورة أميرة أبو الفتوح وكتاب «اعترافات إحسان عبدالقدوس» لمحمود مراد عبارة عن حوارين مطوّلين، أما كتاب «إحسان عبدالقدوس بين العلمانية والفرويدية» للكاتبة السعودية سهيلة زين العابدين حماد فهو دراسة مطولة لأدبه تنطلق من رفض مسبق لهذا الأدب، وقد أشارت مؤلفة الكتاب إلى أنه جاء نتيجة توسُّع لها في مقالها المعنون: «سهيلة حـمَّاد تُوجِّه الضربة القاضية لإحسان عبدالقدوس» المنشور بصحيفة «المسلمون»، ولا أظن أن الحكم المسبق على الشيء يُمكن أن يخرج بنتيجة تتسم بالعلمية والحياد.


محمد مصطفى هدارة

وبعد رحيل إحسان عبدالقدوس بدأ الـدرس الأكـاديمـي يوجه عنايته لأدبـه، فتتابعت الرسائل العلمية، ومنها على سبيل الإشارة لا الحصر:

عامل الزمن في روايات إحسان عبدالقدوس وأثره على البناء الفني.. من عام 1952 - 1985، إيمان سمير أحمد كامل، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1990.

بناء الشخصية في روايات إحسان عبدالقدوس، سحر محمد نجيب أبو العزم، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1991.

بناء الرواية عند إحسان عبدالقدوس: دراسة تحليلية، حربي طلعت عبدالغني، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1998.

الشخصية في قصص إحسان عبدالقدوس القصيرة.. دراسة فنية نقدية، كوثر محمد عبدالنبي، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 2009م.

الرواية السياسية.. دراسة في نماذج إحسان عبد القدوس، للباحث الصيني «آي.خ.هـ.شيـو»، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2015.

رؤية تشكيلية معاصرة لرواية «ثقوب في الثوب الأسود» للكاتب إحسان عبدالقدوس، إيمان عبدالباقي محمد الطوخي، كلية الفنون الجميلة بالزمالك، 2017.

وفي الختام، يبقى أدب إحسان عبدالقدوس ظاهرة تلفت الانتباه في مسيرة القصّ العربيّ، وهو أدب تحققت له جماهيرية وشعبية قلّما تحققتا لمبدع سواه. وإذا كان النقد قد ولّى هذا الإبداع ظهره؛ فإن حفاوة القراء والمتلقين عوضٌ للمبدع -في أحايين كثيرة- عن النقد والنقاد.